وظائف الوصف في المقامات اللزومية للسرقسطي الأندلسي

أ. أسماء شاوي

جامعة الجلفة

مقدمة:

ظل الفن الشعري العربي القديم ردحا من الزمن الأداة المعبرة عن هموم القبيلة وتطلعاتها والممجدة لآمال الفرد إلى أن هذا لم يمنع البتة من ظهور أنواع أدبية جديدة في ظل الانفتاح على الآخر وتأثير الواقع الجديد في الحياة الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية للإنسان العربي لاسيما في عصر الدولة العباسية، التي كانت بحق ملتقى الأفكار والطروحات الأدبية الشيء الذي أدى إلى ميلاد فن سردي جديد يطلق عليه فن المقامة، والتي مثلت نتيجة طبيعية لهذا التلاقح الفكري والواقع الجديد، كانت المقامة وعاء جامعا وحافظا لغريب اللغة في قالب سردي مشوق معتمدة في ذلك على الوصف كعنصر هام في تكوين الدلالة النصية فكثرة المقاطع الوصفية في المقامات اللزومية وتعددت بتعدد المقاصد والغايات التي يسعى الكاتب الى تحقيقها سواء كانت جمالية فنية أو تواصلية نفعية لأن الوصف إنما يؤتى به في الكلام ليوضح ويدقق وقد يستعمل وسيلة للتأشير والإقناع، وقد يكون مصدر لذة وإمتاع . ماهي مختلف الأدوار والوظائف التي ينهض بها الوصف داخل النص المقامي؟ وما الذي أضافته المقامات اللزومية لفن المقامات في الأدب العربي؟

كل هذه التساؤلات وأخرى سنحاول الإجابة عنها في هذا المقال بهدف إحياء هذا النص الكلاسيكي"المقامات" وقراءته قراءة جديدة علها تغطي بعض جوانبه وتكشف عن بعض خباياه، او تفتح بابا للباحثين المهتمين بالتراث الأدبي في الأندلس والذي لازال بحاجة للدرس والبحث وخصوصا المقامات اللزومية.

تعريف الوصف:

لقد احتفى الأدب العربي على اختلاف عصوره وأشكاله الأدبية بالوصف فهو قديم قدم الأدب نفسه وقد تعددت تعاريفه انطلاقا من قناعات مختلفة وبما ان المقام لايسمح لإيرادها جميعاً نكتفي ببعضها للتوضيح فحسب تقول"سيزا قاسم" في كتابها"بناء الرواية": الوصف أسلوب انشائي يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسي ويقدمها للعين، فيمكن القول أنه لون من التصور.... فاللغة قادرة على استحياء الأشياء المرئية وغير المرئية مثل الصوت والرائحة من هنا نستطيع ان نفكر أن التصوير اللغوي إيحاء لانهائي يتجاوز الصور المرئية[1] [(2)]،إن الوصف من وجهة نظرسيزار قاسم مرتبط بالمظاهر الحسية فهو تقديم حسي للموصوفات مادي لما يتناوله من ذكر الأشياء المرئية، كما يرتبط بمختلف المظاهر المجردة التي تجعل اللغة ماثلة وحاظرة في خيال المخاطب. لقد سجل كذلك المعجم السميائي حضوره فقد تناول الوصف حسب التعريف الآتيّ:"نسمي وصفا في مستوى التنظيم الخطابي كل مقطع يحيل حيزاً نصياً، مثله مثل الحوار والحكى والمشهد...الخ[(3)]

هنا يتجسد الوصف كوحدة نصية مستقلة بذاتها مثلها مثل السرد والحوار والمشهد، لها خصوصيتها ومكوناتها البنوية القابلة للتحليل.

تعريف المقامة:

أما المقامة في صورتها النهائية على يد بديع الزمان الهمذاني الذي أصل لها وأرسى قواعدها كفن أدبي قائم بذاته، فأصبحت تعني "نمطا من الأحاديث التي تتميز بقواعد محددة سواء في شكل الإسناد أو تركيب المتن ثم لم تعد المقامات وقد استقامت نوعاً سردياً- تقترن بـــ "الحديث" إنما أصبحت تحيل على وقائع متخيلة مسندة إلى راوٍ يقدمها، لا على سبيل التحقق من صدقها شأن

الوظيفة التي كان يقوم بها الخبر، بل على أنها نوع من الأدب السردي الذي يصدر عن موهبة أدبية غايتها ابتداع حكاية وليس رواية واقعية مما جعل المقامة لتحقيق هذا الهدف تقوم على راوٍ وهمي يختلق متناً وهمياً"[4]

ولعل من أوسع وأشمل ما عُرِفَتْ به المقامة في صورتها النهائية تعريف عمر رضا إذ يقول: "تطلق لفظة المقامة اصطلاحاً على قصة نثرية وجيزة مشتملة على ملحمة يرويها الكاتب على لسان شخص فرضي، وقد تكون طويلة أيضاً، وقد تورد من خلالها أشعار كثيرة لتزيد المتكلمين قوة والمترسلين بلاغة، ولابأس بأن تكون لصاحب المقامة او لغيره ومن مستلزمات المقامة أن يضع الكاتب فيها غرائب اللغات وشواردها يذكر حضاً وافراً من الكلمات ويكثر عدد الألفاظ ويبذل واضع المقامة كل همته في تزيينها وتحسينها ويأتي بنوادر التركيب ويبالغ في الصناعة اللفظية والمعنوية ويزينها بما استطاع من الحكم والأمثال وأن ملاك المقامات وقوامها قصة حادثة تقتصر على رجل معين لا يتجاوز منه أبداً وهو خيالي في الأغلب [5]. فتصبح المقامات بذلك قصة قصيرة مسجوعة ، يتبارى الأدباء لإظهار براعتهم اللغوية والأدبية فيها.

تجديد االسرقسطي في مقاماته اللزومية:

كتب السرقسطي خمسين مقامة أقامها على فكرة الكدية، ولحسن الحظ وصلتنا هذه المقامات كاملة بل هي"النص المقامي الأندلسي الوحيد الذي وصلنا تاماً"[6] وهي معروفة بالمقامات اللزومية لأن صاحبها التزم فيها مالا يلزم في أسجاعها وأشعارها، عارض بها الحريري، وقد تناولت موضوعات خاصة بها لم تتناولها المقامات المشرقية وإن تناولتها فقد اكتفت بمجرد العرض السطحي لها من هذه الموضوعات نذكر:

1-رثاء المدن:هذا الموضوع أندلسي بامتياز عدا ما نجده عند الحريري من حزن ورثاء كلما تذكر بلده سروج وما حل بها، لقد تفوق الأندلسيون في رثاء مدنهم نتيجة الأوضاع والفتن التي عاشوها، هذا ما جسده السرقسطي في مقاماته حين رثى القيروان(*) والتي نصها كالآتي"وقد استولى عليها الخراب، وذهبت بدولتها الأعراب، فأغاضت حوضها ونميرها..."[7] هنا نحس بنفسية السرقسطي المحترقة و تعابيره الحزينة على مستوى المقامة التي شكلت غرضاً شعرياً قائماً بذاته هوندلسية *"الرثاء".

2-الحب العذري:من المواضيع اتخذت كوسيلة لتحقيق غاية وهي حماية جزيرة الأندلس التي عرفت عناصر غير مسلمة لا ترى حرجاً في الاختلاط المحرم ولما كان دور المقامة الأساسي نقد الأوضاء السائدة كان من واجبها صد هذه الظاهرة ولفت الانتباه إلى ضروب الحب الطاهر العفيف عن طريق اثارة الوازع الديني لديهم. هنا نجد الكثير من المقامات التي أثيرت عقدتها حول الموضوع نكتفي بالمقامة الحادية عشر كنموذج حيث يورد فيها السرقسطي قصة ابن عم البطل الذي كان له ابنة عم يهواها وتهواه لينكشف الأمر نتيجة أقطاب أخرى متداخلة يقول "[و] أحس بذلك أهلها فتساوى بالقطيعة حزنها وسهلها" وكانت النتيجة "أن خالطه مس وجنون وغالبه من الحب ضروب وفنون، وبقي-كما ترون- يتيه في البلاد، يلهو عن الطريق والبلاد"[8] وعادة هذا ما يحدث في قصص الحب الشهيرة وفي الموضوع نفسه نجد كذلك المقامة الثالثة والتاسعة والعشرون وغيرها.

3- الرحلة البحرية:قبل التطرق إلى هذه النقطة ينبغي الإشارة إلى أن الحريري في مقامته "العمانية" قد ركب بطله البحر والهمذاني كذلك حين سافر بطله على المركب في مقامته "الخلفية" هنا نلاحظ بوضوح أن الحديث لم يدر حول البحر بل هي مجرد ذكر عارض للبصر و لم يؤثر في عقدة المقامة و لم يتخذ من البحر مسرحاً لأحداثها في حين أن المقامة الأندلسية تلبس بطلها حلة العارف بأحوال البحر يقول السرقسطي في مقامته" العنقاوية": "... فبينما نحن كذلك إذا انسابت بنا تلك الأرض، واستدر بنا الطول منها والعرض فطوينا المراحل، ورأينا الصحاري تمشي بنا والسواحل،إلى أن رأينا البحر يسير إلينا أو نسير إليه ويعلو علينا تارة ونعلو عليه..."[9] إلى آخر المقامة وهي طويلة لايسعنا إيرادها كاملة غير أنها في أسلوبها تجنح إلى الخيال أكثر، وتتشابه نوعاًما مع رحلة السندباد البحري، وجميع المقامات التي كتبت في الموضوع كانت غير مألوفة "قصص خيالية" هنا نقف على ما قاله محمد رضوان الداية "مرّ فنّ المقامة في الأندلس باتّفاق الجميع بثلاث مراحل: مرحلة الرواية وقد نقلت فيها النصوص الأصول من المشرق الى المغرب ومرحلة الشروح والتي عرفت فيها مقامات الحريري أهم شروحها وهو شرح الشريشي ثم مرحلة المعارضة، عرفت بظهور

المقامات الأندلسية التي يتبع فيها مؤلفها منهج الحريري في الكتابة خاصةً"[10] غير أن هذه المرحلة من كتابة المقامات الأندلسية مرحلة خلاقة في تطور الجنس الأدبي والذي لايزال يجذب مختلف القراءات المتعددة المشارب. فهو ذو قيمة جمالية متجددة ومكانة مهمة بين الأجناس الأدبية التداولية[*]

لما كان الوصف "أسلوب كتابة وخطاب له بنية شكلية وطرائق اشتغال داخلي وله أيضاً بنية دلالية متينة الصلة بسياقها السردي والمقاصد التواصلية للواصف"[11] فهو ينهض بوظائف حكائية وأخرى دلالية داخل النص المقامي وبما أن المقام لا يسمح سنكتفي بعرض مقامة واحد للتوضيح.

أولاً:الوظائف االحكائية:وهي متعلقة بالمسار السردي للحكاية" المقامة" من جهة وأحداثها وزمانها والقائمين،تنطوي على:

1-الوظيفة السردية *la fonction narative*:عادة ما يلجأ النص السرديّ إلى موضعة أوصافه في مناطقه الإستراتيجية وتعدّ "البداية [أو الاستهلال] أحد البؤر البارزة في استقطاب الفعل الوصفي"[12] خاصة إذا ما تعلّق الأمر بنمط سردي قديم كالمقامات اللزومية.

البداية أو الاستهلال القصصي له أهمية بالغة ومتفردة "من ناحية تأديته وظيفة جلب انتباه القارئ أو السامع او المشاهد، وشدّه الى الموضوع. فبضياع انتباهه تضيع الغاية من القص"[13] ، بمعنى أننا نقصد بهذه الوظيفة العوامل التي تسهم في بناء الوحدة القصصية وتضيف الى العملية السردية قيمة مركزية تتعلق بتبئير الحدث الأساسي في المقامة والقارئ يتبين مثل هذا الوصف الاستهلالي في المقامات اللزومية فيمايلي:

يفتَتِحُ السائب بن تّمام مقامته بقوله:"انحدرتُ الى أرضِ حُلون، فبقيتُ لهفان أسوان، أُقاسي من الخُطوبِ الضروب والألوان، حتى اذا كنت بذي المجابر من أرض الحجاز عرضَ لي بين نجد وتِهامة فتًى يتلألأُ وسامةً، وإيماء إلى كرم النجيرة وإشارة، مشتملا للبجاد، ومتقلداً للنجاد"[14].

هذه الجمل التي ابتدأ بها السائب مقامته هي جمل سردية صرفة تحمل طابعا وصفيا باعتبار أنها تحمل معلومات حول شخصية السّائب في حدّ ذاته بالإضافة إلى المعلومات المرتبطة بأولى شخصيات المقامة ظهوراً على مستوى الخطاب وهي شخصية الفتى.

إذا أعدنا النظر في هذا المقطع يتبين أنّ اختيار المكان وشخصية الفتى لم تكن من باب المصادفة مما ولد الكثير من التساؤلات من قبيل لماذا اختار شخصية الفتى و لم يختر شخصية أخرى؟ ألن يمثل هذا الفتى شخصية مهمة في المقامة التي ستروى؟ لماذا وصفه بتلك الصفات دون أخرى كل هذه التفاصيل المبثوثة في هذا المقطع تقوم بدور خفي وأهمية كبيرة سواء على مستوى المقامات أو على مستوى الخطاب السردي ككل.

نصادف في هذا النموذج عدداً كبيراً من الأفعال المشكلة للمحفزات الأساسية للفقرات، أولها المحفز الحكائي (انحدرت)، من الواضح أنه قد كان بإمكان الكاتب تعويضه بأفعال أُخرى يمكنها تأدية المعنى السردي نفسه مثل (ذهبت، تركت...) الى أنه اختار هذا الفعل بالذات (انحدرت) ليعطي الحدث بعداً وصفياً، يترجم الإحساس الداخلي للشخصية المحققة للفعل، إن ما يميز الفعل أنّه مشحون بدلالة نفسية مردُّها الى عدم الاستقرار هذا ما يتأكّد من قوله (فبقيت لهفان .... الضوب والألوان)، فكثرة الاضطراب والمشاكل دفعته الى الرحيل، فعايش ما يمكن ان نصطلح عليه –بالمفهوم السيميائي– القضاء على الافتقار الذي كان يعانيه معنوياً لإشباع هذه الحاجة النفسية لم يجد مخرجاً غير السَّفروالتِّرحال.

يوحي هذا الابتداء بتقديم شخصية "الفتى"، والإعلان عن سماتها، بأنّ أحداث القصة ستتمحور حوله، أي أنّه سيكون الشخصية الرئيسية وهذا لم يخرق آفاق انتضار القارئ والتي بدأت تحرك استعداداته التأويلية منذ بداية الوصف ليرسم منها أُفقاً وقُعِيًّاً لهذه الحكاية.

2- الوظيفة التعلمية الأخبارية *la fonction didactique et informative*: يتخذ الوصف عندما يكون إخبارياً أبعاداً تعليمية، من خلال بث المعرفة التي تؤول إلى صفات وأبعاد ومعلومات يُستدل بها فيما بعد عن الموضوع الموصوف فالإخبار ما هو إلا ملازم للوصف يسير إلى جواره، ذلك أن الوصف دائماً إخبار عن موصوفه.

هذا البعد التعليمي للوصف يتجلّى في المقامات اللزومية(*) من خلال المقطع الآتي:

"قلت: فابن أبي سُلمى؟ قال: اجأ أو سلمى زهير لا زهيرٌ ونهر لا نُميرٌ وذو حكمٍ وإحكامٍ وعارضٍ في الفصاحة رُكامٍ كثُرَ تنقيحهُ فزكاَ تلقيحهُ ... قلت الذبياني زيادٌ فقال: جوادٌ جرى في حلبة جياد (...) فما شئت من إحساس ورقّة قلب ولسان...."[15] .

يستدعي الوصف في هذه المقامة –الطويلة– كفاءة موسوعية توفرت في شخوصها. تمثّلت في إقامة مقارنات بين الشعر والنثر ومراتب الشعراء ومعرفة واسعة بالنصوص لتبرز وبوضوح الوظيفة التعليمية والتي ولد الوصف بعد النهوض بها متعة "مردُّها إلى اكتشاف نُظُم العلاقة بين الدوال والمراجع المفترض أنّها تحيل عليها والنظر في مدى مطابقتها للرصيد المعرفي"[16]

هذه المتعة بالذات تثير عند المتلقي هوى القراءة وتشد انتباهه ليوظف مكتسباته ويصبح بذلك قارئاً إيجابياً فاعلاً في عملية التلقي دون أن ننسى أن المقامة تهدف إلى تعليم اللغة العربية بالأساس،فهي تنهض بوظيفة تعليمية.

3- الوظيفة التمثيلية التصويرية *la fonction représentative ou mimétique*:

تقوم هذه الوظيفة على مصارة تقول "إنه بإمكان الكاتب المطابقة بين الكلمات و العالم أي أنه بإمكانه تمثيل العالم بواسطة اللغة"[17] نلتمس ذالك في مقامة " الدب"(*)والتي يقول فيها "ثم دار به القول و الهتف، وانثال عليه النسل والنتف، والرغبات تستحثُّه والصِّلات تستبثُّه وهو يبدي تعززاً ويظهر تقزُّزاً، الى أن سمحت قرونه، وانقاد حَرونُه فقال: اسمعوا جوابي وكيف خطئي وصوابي"[18]

هذه الصور المروعة الهستيرية ذات الطابع التمثيلي والتي عانت منها شخصية "السدوسي" حيث يرسم الوصف هنا في حركة تصويرية مزدوجة الأبعاد تشمل الصوت (القول، الهتف) والحركة (النتف، تستحيثه، تستبثه، يبدي...) فالوصف هنا يؤشر على تحول ما سيقع، ذلك راجع الى ما عانته الشخصية من حركات وأفعال كانت دليلاً على انقطاع حالة السكون واللهو. والتي كان يعيشها في بداية المقامة –لتتحول إلى حالة من التدهور والاضطراب في آخر المطاف يعود إلى السكون في قوله "اسمعوا جوابي " محاولاً تخليص نفسه من هذا المصاب.

ثانياً: الوظائف الدلالية:

الوصف ليس مجرد نشاط لغوي مخصوص بل هو "....يبئر (....) انتباه القارئ على مستوى خاص للملفوظ / المعجم (ووجوهه)، ولكنه إلى ذلك يركز انتباهه على عنصر دلالي للنص شخصية كان أو موضوعاً وفعلا كان او وضعية سكنا كان أو عادة، ومن هذه الجهة بالذات، ومن ميزة الإلحاح الذي يبئر ويبرز، ويميز ويحاصر و "يوقف" يبعث النص في القارئ استعدادات تأويلية متنوعة"[19] إذن فللوصف أبعاد في الحكي بل أكثر من ذلك فهو فضاء للدلالة المتنوعة الوظائف ويمكن حصرها فيما يأتي.

1- الوظيفة الاستشارية "الاشارية" *la fonction indicielle*:

تتجسد في المقطع الذي يقول فيه الواصف:"فانصرف القوم على يأس، وقد ذاقوا من البأس أمر كأس، فعرَّ على أبيه من أمره ما كان هان، وأحرز عنده السبق والرِّهانـــ ثم إن ذلك الناسك أسرَّ في ارتغائه حسواً، ورسا على حبِّ الجاه رسوا، فاغتال أخاه واعتمده بالسوء وتوحاه وقال لأبيه: "إني كنت أرى الرؤيا هائلة عادلة عن القصد مائلة، أعي تأويلها وغَمُضَ، وأمر ثمرها وحُمض، كنت ارى أن القمر يسمو إلى الشمس، مع الدراري(*) الخمس، فترجع الشمس سوداء، والأرض ريداء(**)، والقمر يتلألأ إشراقا والنجوم تتميز كمدا وإطراقا"[20].

إذا قسمنا هذا المقطع إلى جزئين انطلاقاً من معناه الظاهر نجد أن المقطع الأول منه يعتبر عن فلسفة أو رؤية خاصة للواقع المُعاش وفي مقابله عالم الأحلام والرؤى وهي نظرة تلتقي إلى حد كبير مع تيار الرومانسيين إذ كان الواحد منهم عندما يضيق ذرعاً بالعالم الحقيقي يطلق العنان لنفسه في الأحلام يعوض بها ما فقده في العالم المعاش ذلك أن "استخدام الواصف خاصيات مشحونة قيميا،[تلك الخاصيات] (...) تقتضي حكما معياريا أخلاقيا أو جمالياً، وتكشف بالتالي ذاتية الواصف ومواقفه"[21] لا بد من الإشارة إلى أن الوصف المقدم لعالم الحقيقة وعالم الخيال يترع فيه الواصف منزعاً معيارياً حيث أنه لا يتوانى في إطلاق أحكامه بشأن الموصوفات التي يعرضها فنجده قد حمل عالم الخيال قيماً متعددة أسبع من خلالها آماله غير المحدودة ولو نسبياً منها نذكر(سوداء، ريداء، إشراقاً، إطرقاً، إرعاداً، إبراقاً) مما أضفى على هذا العالم قيماً تُعلي من شأنه وترسمه رسماً ايجابياً أما العالم المُعاش وما كان يسوده من اضطراب فقد جعل الواصف منه مكان موحشاً أقرب ما يكون إلى حياة البراري يتجسد ذلك من خلال المعجم الذي اعتمده في وصفه (على يأس، البأس، اغتال، السوء...).

الوصف في هذا المقطع معني على الأقل بمعنيين معنى ظاهر مباشر تجسد في عالم الحقيقة أكسب الوصف وظيفة إخبارية تعليمية (أوضاع المجتمع)، أما الثاني فحمله وظيفة إشارية[*] تجسدت في الجانب التخييلي وهو عالم الأحلام والذي يؤول في الأخير على تغير أوضاع المجتمع –بعد تفسير تلك الرؤيا– والوظيفة الإشارية يمكن ألّا تكون مسجلة في كله وإنما يدلنا عليها تفصيل من التفضيلات المبثوثة في المقاطع المقامية.

2– الوظيفة الرمزية *la fonction synoptique*:

قد يكون الوصف قابلاً للقرائتين وحاملاً لمعانٍ قريبة ظاهرة وأخرى بعيدة خفية، ذلك أن الوصف حين يقدم معلومة أو أكثر من الموصوف فهو بطريقة ضمنية يقول أشاء أخرى يتطلب استجلاؤها في النص المقامي القيام بنشاط فكري تأويلي، هنا نستحضر مقامة الأسد التي تطلعنا على نوع من النقد السياسي الساخر الذي يغلفه الرمز ولكن بطريقة واضحة لا تحتاج إلى تعليق لا سيما من طرف عارف بأحوال الأندلس وإضطراباتها في عهد المرابطين، حيث يشبه السرقسطي الحاكم بالأسد في القسوة والبطس والقهر فيروي لنا لقائه مع أسد قطع الطريق على الناس فيخاطبه البطل المقامي راجياً إياه أن يفسح الطريق للعابرين يقول: "يا أبا الحرث يا أسامة، لك الحسن والوسامة لك الإمارة أو الرياسة فأين منك الاناه والسياسة ورفقاً على عبيدك، وصولاً على قفرك وبيدك قد روعت القلوب وطردت الجدود والحلوب نحن من جنابك في حرم ومن سطوك في برم، مثلك يملك فلا يهلك ويقدر فلا يغدر نحن قوم ضعاف....إذهب بفريستك إلى عريستك وانهض بنبالك إلى عيالك، حل المال لملاكه وتنح عن الطريق لسلاكه"[22] وهنا ما كان من الأسد إلا أن زوى وجهه ليتعجب الراوي من هذا التصرف والذي يتناف أمام تصرف حكام الأندلس ذلك "أن تدبرهم أقل من تدبر الحيوان الحضاري لا عقل ولا عاطفة همهم شهواتهم"[23].

3– الوظيفة الإيديولوجية القيمية *la fonction idéologique ou axiologique*:

يجمع الدارسون على أن "النص ملفوضاً وتلفظاً متجذّر في الإيديولوجية[*] هذا ما يؤكده هامون بقوله "الوصف محل تسجيل متميز في النص للغة انعكاسية، أي لوصف من الدرجة الثانية وصف انعكاسي ولتعليق تقييمي، خطاب مواكب أوشرح بسيط خاصة على فعل الشخصيات أو على قولها أو نظهرها وهنا أيضاً تكمن بالضبط النقاط الحساسة لتدوين الإيديولوجية في النص"[24] هنا المتلقي مستهدف وجدانياً بالدرجة الأولى وذلك لتكوين صلة حميمية بينه وبين النص، تتضح هذه الفكرة في هذا المقطع الوصفي من "مقامة القاضي" التي يقول فيها الواصف: "... وإلى كم هذا الإعتداء والإفتراء؟ تواطأتم علي في التدليس ومن لي بهامان وإبليس؟ أعليّ يقتات وبما لي يقتات؟ وهل لأحد إلي متات..."[25] تجسد هذه المقامة صورة ساخرة للفقهاء المتسلطين وهم يلبسون قناع الصلاح والتقوى لتحقيق أهداف شخصية غير أن الراوي يتدخل لكشف الحقيقة فيقول "لا يكفيه قليل ولا كثير، ولا يسلم من ظلمه خسيس ولا أثير (....) تلمح الدرهم فتركب الأيهم، وترى الدينار فتقتحم النار لا تبالي العار، ولا ترد المعار"[26]غير أن الشيخ يتدخل ليبرر موقفه في باقي المقامة.

نجد أن بؤرة الدلالة تقوم على فكرة الوازع الديني وتأدية الدور الإصلاحي في المجتمع والتي مررها السرقسطي من خلال مقامته فكشف الإحتيال الواقع تحت قناع الدين والإصلاح.

4- الوظيفة الجمالية التزيينية *la fonction esthétique ou ornemental*:

يمكن رصد هذه الوظيفة من خلال المقطع الذي يقول فيه الواصف "ودخل بنا إلى مثل القمر التمام، مفداة بالأخوال والأعمام، تفتر عن تشتيت كالبرد وتهتز عن قوام كسيف الصقيل الفرد، قال: فجعل يستهديها حواراً وهي تبدي نفاراً (....) فإذا نهد كالتفاح، قد ختم بالعنبر النفاح وخصر بتيل، كما لوي الفتيل وكفل رداح كمن انداح من الرمل منداحٌ وعطف مياسٌ كما تعارض الرجاء و اليأس، وما شئت من لفظ رخيم"[27]

يميل هذا الوصف في قالبه الشكلي إلى الاعتماد على الوظيفة الشعرية للغة، محاولاً أن يحاكي مرجعاً واقعياً، فوصف صورة واضحة الأبعاد عن مقومات الجمال ملتمساً الجمال العربي كمقياس ونموذج ، ولتحقيق ذلك استنجد في بناء وصفه بعلم البيان ممثلاً في التشبيه (مثل القمر التمام) (فتيل كالبرد) (قوام كسيف) (نهد كالتفاح) كما يحضر علماً البديع من خلال التراكيب السجعية التي توشح المقطع منها: (التمام، الأعمام...) كما نجد الجناس في قوله (حواراً/ نزاراً/ التفاح/ النفاح...) لقد استطاع الواصف انتقاء الألفاظ الحسان ذات الظلال الشعرية والأجراس الموسيقية الغنية والتي ولدها خاصة السجع باعتباره موسيقى لفظية.

ومن المنطق والضروري بمكان ان الوظيفة الجمالية تستدعي وجود الوظيفة الإبداعية لأنه من أوجد الجمال اوجد التمازج والإبداع لأن الوصف الجمالي والإبداعي متلازمين وحتماً إن الرؤى الجمالية التزيينية تصب دوماً في قالب خيالي إبداعي ،وهي متوفرة في المقامات اللزومية بكثرة.

الوظيفة التعبيرية *la fonction expressive*:

تعد وجهة نظر الشخصية في هذا الوصف من المبادئ المنظمة للخطاب وهو بالضرورة علامة ذاتية، ذالك ان الوصف قائم على الاختيار، اختيار الموصوف والمعجم، هذا الاختيار يمثل بصمة من بصمات الذاتية الواصفة. يقول السائب في أحد المقاطع: ".....قد رزئت بحميم ورمتني الليالي بفقده في الصميم وكنت جربت وفاه وأحمدت صفائه، (....) فصار الليل آنس لي من النهار و(الخيري) أنفح من البهار ...."[28].

هنا الشخصية تحاول أن تنقل إلينا انفعالاتها وأحاسيسها مباشرة حيث تتجلى الوظيفة التعبرية في الحالة النفسية والمعنوية الحزينة للشخصية بعد ان فقدت صديقا موثوقاً فيه.

لقد استعملت الشخصية ألفاظ مشحونة بدلالات الحزن ولآسى منها "رمتني الليالي، الليل آنس من النهار، محبّة الانفراد....) وهذا التكثيف اللغوي والدلالي الذي سجلناه في المقطع" يعبر من جهة عن قدرات الواصف اللغوية و/ الأسلوبية ويهدف من جهة أخرى إلى الضغط على حساسية القارئ"[29] وذلك بهدف تحقيق الاندماج الكلي مع الشخصية في النص الوصفي.

مما سبق نتوصل أن الوصف في المقامات اللزومية قد أدى أكثر من وظيفة بعضها متعلق بالحكاية وبعضها الآخر يتعلق بالدلالة ليكون بذلك قد غاص في شكل المقامة الخارجي وفي معناها الداخلي فلا وصف بلا وظيفة في المقطع المقامي الواحد كما يمكن أن يشتغل أكثر من وظيفة حسب طبيعة المقطع في حد ذاته.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر :

- أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي: المقامات اللزومية، تح حسن الوراكلي: ط2، 2006 جدارالكتاب العالمي.

ثانيا: المراجع:

- حبيب مونسي: شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، دارالمغرب للنشر والتوزيع، وهران-الجزائر، ط3 2009.
- سيزا قاسم: بناء الرواية "دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ"، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، مصر (د- ط)، 1978.
- عبد الله ابراهيم: موسوعة السرد العربي، بيروت، لبنان، المؤسسة العربية للدرايات والنشر، ط1، 2000.
- عمر رضا: الأدب العربي في الجاهلية والإسلام، دمشق، 1972.
- محمد الناصر العجيمي: الخطاب الوصفي في الأدب القديم "السم الجاهلي نموذج"، مركز النشر الجامعي، تونس ومنشورات سعيدان بسوسة، ط1، 2003.
- محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، دار الأنوار، بيروت، 1986.
- محمد نجيب العمامي: في الوصف بين النظرية والنص السردي، دار محمد علي للنشر، صفاقص الجديد،ط1، 2005.
- ناهضة ستار: بنية السرد في القص الصوفي، المكونات والوظائف والتقنيات، دراسة منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.
- نور مرعي الهدروسي: السرد في مقامات السرقسطي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2009.

ثالثا: المراجع المترجمة

- فيليب هامون: في الوصفي، ترجمة سعاد التركي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، ط1، 2003.

رابعا: المراجع الأجنبية

Grenas.AJ. courtes.A :Sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du language. Collection dirigée par bernard et françoisrastier . Saint csermain. Paris. 1993

خامسا :المجلات

محمد عبد العظيم: المقتمات اللزومية للسرقسطي ، اصولها ، تحقيقها وقيمتها الفنية، يمجلة دراسات اندلسية ، ع 37، 2007، تونس، ص 11

سادسا: المذكرات

مليكة بو جفجوف: بنية الوصف ووظائفي ألف ليلة وليلة حكايتا "الحمال والثلاث بنات والسندباد البحري نموذجاً"، مخطوط ماجستير، جامعة منتوري قسنطينة، 2008.

الهوامش

1 سيزاقاسم: بناء الرواية"دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ"، مطابع الهيئة المصرية العامة لكتاب القاهرة، مصر، (د ط)، 1978، ص 79-

3-Grenas.AJ. courtes.A :Sémiotique dictionnaire raisonné de la théorie du language. Collection dirigée par bernard et françoisrastier. Saint csermain. Paris. 1993. P93

4- عبد الله ابراهيم: موسوعة السرد العربي، بيروت، لبنان،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2000، ص 224.

5- عمر رضا: الأدب العربي في الجاهلية والاسلام، دمشق، 1972، ص 205-207.

6- نور مرعي الهدروسي: السرد في مقامات السرقسطي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2009، ص09.

(*)- دمرت القيروان على يد العرب الصعيد في 449هـ عنيت هذه المدينة برثاء خاص في المراجع يورده ابن بسام في ذخيرته.

7- أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي: المقامات اللزومية، تج حسن الواركلي، ط2، 2006، جدار الكتاب العالمي، ص320.

ينظر محمد يعهبد العظيم: المقتمات اللزومية للسرقسطي ، اصولها ، تحقيقها وقيمتها الفنية، يمجلة دراسات اندلسية ، ع 37، 2007، تونس، ص 11*

8- المصدر السابق، ص112.

9- المصدر نفسه، ص338

10- محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، دار الأنوار، بيروت، 1986، ص218.

11 محمد نجيب العمامي: في الوصف بين النظرية والنص السردي، دار محمد علي للنشر، صفاقص الجديد، ط1، 2005، ص174.

12 – مليكة بو جفجوف: بنية الوصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة حكايتا "الحمال والثلاث بنات والسندباد البحري" نموذجاً، مخطوط ماجيستير، جامعة منتوري قسنطينة، 2008-2009، ص120.

13- ناهضة ستار: بنية السرد في القص الصوفي: الكونات والوظائف والتقنيات، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص84.

14- أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي: المقامات اللزومية، ص33.

– هناك العديد من المقامات التي تجسد هذه الفكرة "الوظيفة" منها مقامة ال"الحمامية" والتي تقدم معلومات ذات طابع جغرافي وكذا الأنثروبولوجي * والتاريخي عن "الهند" وكذلك المقامة في الصفحة (192،193) قدمت البنية السيكولوجية والنفسية للشخصية المحورية في المقامات وغيرها من النماذج.

1- المصدر السابق، ص266-267.

2- محمد الناصر العجيمي: الخطاب الوصفي في الأدب القديم "السم الجاهلي نموذجاً" مركز النشر الجامعي، تونس ومنشورات سعيدان بسوسة ط1، 2003، ص455.

1- حبيب مونسى: شعرية المشاهدفي الابداع الأدبي، دار المغرب للنشر و التوزيع وهران، الجزائر، ط3، 2009، ص116.

*- نفس الوظيفة تتجلى في مقامة الفرس، والمقامة ص47 والمقامة ص412...الخ.

2- أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي، مقامة الدب، ص331.

3- فليب هامون: في الوصفي، ترجمة سعاد التركي، المجمع التونسي للعلوم والأدب والفنون، بيت الحكمة، ط1، 2003، ص154.

*- الدراري: هي الكواكب العضام التي لا تُعرف أسماؤها.

**- ريداء: أي ذات لون كلون الرماد.

1- أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي: المقامات اللزومية، ص403.

– محمد نجيب العمامي: في الوصف بين النظرية والنص السردي، ص*21*.204

*- نجد نفس الوظيفة كذلك في المقامات ص403، حيث يتخذ فيها موضوع الزمن بعداً فلسفيا واجتماعياً وتقلبه يؤدي إلى تقلب الأوضاع السياسية والإجتماعية.

– أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي: المقامات اللزومية"مقامة الأسد"، ص*22*.366

– المصدر نفسه، ن ص.*23*

– وهي كل نظام قيم ضمني جزئياً مؤسس خارج النص ومكون للمقتضي الكلي لهذا النص.*

– فليب هامون: في الوصفي، ص*24*.282

– أبي الطاهر محمد اليوسف السرقسطي: "المقامقات اللزومية " مقامة القاضي، ص*25*.227

– المصدر نفسه، ص*26*.228

– المصدر السابق، ص*27*.122

– المصدر نفسه ،(أبو الطاهر محمد بن السرقسطي: المقامات اللزومية)، ص*28*.100

– مليكة بوجفجوف: بنية القصف ووظائفه في ألف ليلة وليلة، ص*29*.163